النصيحة شرط في البيعة

{عمل علماء المغرب، ماضياً وحاضراً}

مولاي أمير المؤمنين،

يكتسي الحديث عن العلماء، في كل وقت، أهمية خاصة، ويكتسي في وقتنا هذا أهمية أكبر وأخص، لأن هذه الثلة الوارثةَ من القيمين على تعاليم الدين، الذين برز من بينهم من بلغوا درجة الاجتهاد والتوقيع عن رب العالمين، والذين انتظموا في اختصاصات الفقه وحديث سيد المرسلين، وفي تفسير القرآن المبين، لأن هذه الثلة المرشدةَ قد أسهمت على امتداد القرون، في تشييد معالم سنن الأمم الإسلامية وصياغتها، وفي بلورة أنظارها إلى الكون والحياة، واكتسبت بذلك سلطة مرجعية لا تنازع فيها.

وهذه الفئة، والحمد لله، تحظى بوافر التقدير في كثير من الأمم الإسلامية، وعلى رأسها هذه الأمةُ المغربية؛ غير أن العلماء في كل مكان، يواجهون اليوم، في نظر الدارسين، أقضيةً مرد معظمها إلى آثار الانتشار الواسع للتعليم والمعلومات، وإلى وقع التكنولوجيات في ميدان نشر المعارف، وكذا إلى نتائج التغيرات الاجتماعية والاقتصادية في سياقات

سياسية غيرِ مسبوقة، الأمر الذي ترتب عنه تجزؤ في السلطة التي لم تكـن من قبل منوطة إلا بالمختصين في علوم الدين. وقد واجهت خريجي التعليم التقليدي منهم، معاناةٌ بسبب هذا التغير. ولكنـهم عرفـوا، في بعـض الأحيان، كيف يعملون على الاستجابة للتحدي، وحاولوا التكيف مـا وسعهم مع المستجدات، بغيةَ الحفاظ على مهمتهم التليـدة في التبليـغ، ساعين إلى اتخاذ أساليب جديدة للإسهام في بلورة الخطاب الذي تشهده الساحة الإسلامية المعاصرة.

وقصدنا في هذا الدرس، بعد الإذن السامي الـشريف، أن نـذكر، بقدر ما يسمح به الوقت، بعض معالم الخصوصية التاريخية لعلماء المغرب، وتميزهم في سياقهم الحاضر، وذلك عبر محورين اثنين:

- محورٍ أولَ، نعرض فيه لبعض ملامح جهاد العلماء عبر التـاريخ، من أجل بناء الأمة ودعم الدولة وتأطير المجتمع؛
- ومحورٍ ثان، نذكر فيه بعض أوجه التحديات التي تواجـه عامـة علماء الإسلام اليوم، ومكانةَ علماء المغرب في هـذا الـسياق الجديد.

وقبل التطرق إلى المحورين معاً، نفتتح بالآية الكريمة التي ينطلق منها الدرس، وهي الآية الثامن عشرةَ من سورة آل عمران، وهي قوله جل من قائل:

شَهِدَ اللهُ أنه لا إله إلا هوَ والملائكةُ وأُلوا العلْمِ قَائماً بالقسط ﷺ لا إله إلا هو ﷺ العزيز الحكيم ﷺ ."

ففي تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشـور أنهـا وردت استئنافاً وتمهيداً لقوله تعالى في الآية التي بعدها:

إن الدين عند الله الإسلام .

ولكننا في سياق كلامنا نقف عند هذه الآية بالذات، لنجدها دالـة على المراد، وهو إبراز مكانة أولي العلم، من خلال إشراك الحق سـبحانه وتعالى نوعين من مخلوقاته بصدد الإشهاد في أمر هو أعظم أمور تجلـي الخالق سبحانه وتعالى على الكون والإنسان، ألا وهو التوحيد. وواضـح أن مدعاة هذا الإشراك في الإشهاد، هو من حيث تكليف العلماء بأمانتهم التي تدور على تبليغ التوحيد، ورعاية كل ما يترتب عنه في حياة المؤمنين به، من مقتضيات تدخل في الواجبات الشرعية، أو في التحلـي بمكـارم الأخلاق الربانية. أورد المفسرون بخصوص أسباب النزول قولين: سـؤالَ الحَبرين الشاميين اللذين نزلا المدينة، أو الجواب عن نصارى نجران الذين حاجوا في عيسى عليه السلام. وقالوا، بخصوص المضمون، إن شهادة الله تحقيقُه وحدانيته بالدلائل التي نصبها على ذلك، وشـهادةَ أولي العلـم بالاحتجاج المتبوع بالتسليم والامتثال.

وسواء في رأي القائلين بأن كلمة "قائماً" منصوبة على الحـال أو على النعت للمنفي بتقدير "لا إله قائماً بالقسط إلا الله"، فـإن أقـوال

جمهور المفسرين، بعد الإطباق على ما تقرره الآية من شرف العلم وعلو مقام العلماء، تدعو إلى تدبر هذا التلازم بين التوحيد والقسط، أي العدل، وما ذلك إلا لأن الإنسان يجمع في بحبوحة عقيدة التوحيد شتات نفسه استحقاقاً للتكريم، إذ به يتحصل لديه المفتاح المركزي لفهم الكون والطبيعة والتاريخ وموقعه منها. فيكون المستفاد من الآية الكريمة أن الله تعالى الذي بنى كل شيء خلْقَه على القيام بالقسط، وبنى القسط على أساس التوحيد، يرسم للعلماء مهمتهم في هذا القيام المُلزِم برعاية حقوق الله وحقوق العباد.

وإذ نغادر الكلام عن الآية إلى استكناه مقتضبٍ لتجلي هذه الرعاية في التاريخ، نبدأ بالقول: إن مما لا يسعف في إبراز الدور التاريخي للعلماء، وهم يؤدون مهمتهم في رعاية الحقوق المشار إليها، كونَ كتب التاريخ التقليدية، ومعظمها على شكل حوليات، لا تدمج هذا الدور الذي هو عملٌ دؤوب صبور في العمق، بينما سجلات أسماء العلماء ونبذُ حياتهم محال عليها في كتب الطبقات والتراجم والبرامج العلمية، وهذه إنما تفيد في الحياة الشخصية للعلماء قليلاً، وفي حياتهم الاجتماعية والسياسية بكيفية أقل، بينما تركز على نقل العلم من الشيوخ إلى التلاميذ.

وبالرغم من كون العمل اليومي للعلماء، ولاسيما العالمات، كان في معظمه تطبيقياً وشفوياً، فقد تخلفت لنا آثار يمكن الاستناد إليها في تصور الوقع الذي كان للعلماء في تاريخ بلدنا، على مستوى الأمة والدولة والمجتمع، نقتصر منه على ذكر بعض الأمثلة فنقول:

واجه المغرب، في القرون الثلاثة الأولى، بعد وصول دعوة الإسـلام إليه، تحديات منها ثلاثةٌ، لعلها أكبر من غيرها.

فعلى صعيد الأمة، واجهت البلاد حاجةٌ تتمثل في ضرورة الاستقرار على مذهبٍ رسمي، وهكذا برز علماءُ أمجاد هداهم الله إلى تبني مـذهب الإمام مالك، إمام دار الهجرة، وبهذا الصدد يذكر اسم الفقيه الجليل دراس بن إسماعيل الذي توفي في منتصف القرن الرابع للهجرة، فبإدخاله المذهب المالكي إلى المغرب الأقصى وضع العلماءُ ثابتاً من ثوابت الهويـة الدينيـة والفقهية للأمة المغربية. وتحت راية هذا الركن المكين عملوا على تخليص المغرب للسنة. وحيث إن هذا العالم الرائد هو من أساتذة ابـن أبي زيـد القيرواني فإن تلاميذ هذا الأخير، من مختلف قبائل المغرب، هم الذين قاموا برفع التحدي الثاني الذي واجه الأمةَ والمتمثلِ في استكمال إقناع القبائل الكبرى بالإسلام، وفي بناء عدد من المساجد الأولى.

أما على صعيد الدولة فقد أسهم العلماء في إرساء أركانها بـالجهود التي بذلوها لاستقرار الحكم في بيت الشرفاء الأدارسة، فهم الذين مهدوا لهم وعمروا حاشيتهم، وكان هذا الإسهام منطلق التعاون بين الجـانبين، الدولة والعلماء، بالنصح والاستخدام والمشاورة.

فالعالم الذي يبني مقومات الأمة الفكرية، ويصير له رأي في تـدبير الدولة، قد اكتسب، منذ ذلك الوقت، مكاناً في المجتمع، وإن شئنا قلنا إن مكانته في المجتمع هي التي أهلته للمقام المرموق الذي أصبح يتمتع به لدى الدولة. ولا أدل على ذلك في هذا العصر المبكر من قيام العلمـاء بحـل

مشكل عويص، مشكل وضعية أرض المغرب، كما تفسره القصة البليغـة التي تذكر دور عالم فاسٍ المعروف بأبي جيدة في الحسم في هذا المـشكل، فيحكي أن عامل المنصور بن أبي عامر، صاحبِ الأندلس، حين تغلـب على أرض فاس، قال للناس: أخبروني عن أرضكم، هل فتحت صلحاً أم بالقوة. فما كان منهم إلا أن سلكوا مثل سلوك المتهم أمام سلطة التحقيق في يومنا هذا، لا يتكلم حتى يحضر محاميه، إذ قالوا للسائل: "لا جواب لنا حتى يأتي الفقيه"، يعنون الشيخ أبا جيدة. فجاء الشيخ فقـال: "ليـست بصلح ولا عنوة، إنما أسلم أهلها عليها"، أي فاوضوا عليها، فقال العامل: "خلصكم الرجل"، أي دافع عنكم، إذ لو قال إنها فُتحت بالقوة لكانـت ملكيتها للدولة ولفرضت عليها ضريبة خاصة.

والعبرةُ في هذا البروز قيام مشيخة العلماء في المجتمـع متمثلـةً في شخص عالم واحد في كل بلد، يعتبر فيه مرجعاً ويقوم بـدور المحـامي لمصالح هذه الجماعة.

ومن نافلة القول أن نقرر أن الشخصيات العلمية التي أحرزت سلطة من قبل المجتمع إنما استحقتها على أساس ما تميزت به مـن الـصرامة في السلوك، فرسمت عند الناس نموذجاً كنموذج قاضي فاس ابـن مـسعود الهواري الذي قالوا عنه في ذلك الوقت إنه لم يكن يأكل إلا مـن قمـح يزرعه في بلده، ومن إدام يأتيه من قبيلته، ولا يلبس إلا ثياباً تغزلها امرأته.

تيقن العلماء منذ هذا العصر التكويني أن مهمتهم في إقامة التوحيـد الذي شهد عليه جنسهم في الأزل مع شهادة رب العالمين، وإقامة القسط

الذي هو مناط تحقيق تفاصيل الشرع على مقتضى الكتاب وسنة سـيد المرسلين، هذه المهمةُ تتوقف على قيام الأمة، وقيام الأمة يتوقف على دعم أركان الدولة. ولذلك نجد علماء المغرب المالكية، يؤسسون بعد العهـد الإدريسي، بتحالف مع جانب من المجتمع، هم قبائلُ صنهاجة الصحراء، دولةً أوسع وأقوى مركزيةً تجمع في الداخل شتات إمـارات عديـدة، وتضطلع بمشاغل المغرب الاستراتيجية في الخارج، أي في حوض المتوسط والأندلس وغربي إفريقيا. إنها دولة المرابطين التي أقامتها شبكة من العلماء من أبرز عناصرها أبو عمران الفاسي ووجاج بن زلو اللمطي وعبـد الله بن ياسين المصمودي. فالدولة ذات القضايا والبرامج التي تمـس مـصير الأمة، المهتمةُ بصلاح المجتمع، هي منذ ذلك الوقت حليـف العلمـاء، ولذلك نجد عالماً كبيراً وإماماً راسخاً كأبي الوليد الباجي في هذا العـصر يبذل كل ما في وسعه للتأليف والتقريب بين رؤساء الأندلس المتنـافرين، ولتوحيد جهودهم وراءَ ملوك المغرب المرابطين المنوط بهم إنقـاذُ تلـك البقاع الأندلسية المهددة.

غير أن العلماء كانوا واعين بأن تكوين الدولة لا يتم بمجرد استمالة الأمصار، بل لا بد له من البناء المعنوي والفكري. ذلك هـو المـشروع الذي تصدى له أحد أفذاذ علماء هذا العهد المرابطي، وهو محمـد بـن الحسن الحضرمي المعروف بالمرادي، فقد وضع لملوك هذا العهـد كتابـه ***الإشارة إلى أدب الإمارة***، وضمنه قواعد رسوم المُلك ، مع بيان التدابير المحتاج إليها في السياسة الخاصة والعامة، مقتبساً بعض القواعد حتى مـن

آثار اليونان، من قبيل التصور السياسي الثماني الحلقـات، حيـث ورد: العالم بستان سياجه الدولة، والدولة سلطان تحيى به السنة، والسنة سياسة يسوسها الملك، والملك راعٍ يعضده الجيش، والجيش أعوان يكفلهم المال، والمال رزق تجمعه الرعية، والرعية عبيد يتعبدهم العدل، والعدل مألوف، وهو حياة العالم.

إن غايةَ برنامج المرادي هو ضمانُ الاستقرار للدولة الجديـدة، لأن العلماء يكرهون التغيير إذا كانت ستترتب عنه فتنة من أي نوع كانـت. لكن الذي أسهم به العلماء ابتداءً من هذا العهد هو ذلك البناء للمرجـع الفقهي السني في إطار المذهب المالكي، ويعد القاضي عياض من أعظم من أسهموا في وضع قواعد هذا البناء بتأليفه العلمـي، وعملـه التعليمـي، وشعبيته الواسعة.

إن الاحتكام في الإرشاد والفتوى والقضاء إلى هذا التراث الفقهـي الذي صاغه تلاميذ الإمام مالك في المغرب، قد جلب التهمة لفقهاء العهد المرابطي بأنهم فروعيون، أي أنهم ابتعدوا عن الأخذ المباشر من الأصول، القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، والواقع أن اجتهاد هؤلاء العلماء كان في غاية الصواب، فقد اقترحوا على عامة الناس، بصنيعهم الفقهـي المتراكم، مادةً تفصيلية معتمدة يتطلبها التأسيس ويقتضيها الاستقرار، إذ أن تفريع الفقه جاء استجابة في الغالـب لاحتياجـات النـاس ممـن لا يستطيعون الاستعمال المباشر للأصول العامة في حل القضايا الجزئية، وإلا

لاستشرت فوضى التأويل والإفتاء، وللجأ الناس إلى ضـعاف الفهـم، ولوقعوا في فتنة الدين.

لقد أطاح الحكم الموحدي بدولة المرابطين، ونادى بفكرة الرجوع إلى الأصول ضداً على العلماء المناصرين للدولة السابقة، ولكن الـسلطة الموحدية نسبت إلى فقهاء هذا العهد تهمة ثانية هي تهمة التجسيم في مجال العقيدة. غير أن الحكم الموحدي إنما تمكن، ولاسيما في بداياته، من حماية النظام الجديد بتوجيه سياسي صارم، أما العلماء الذين رفعوا لواء المذهب بتراثه، فقد واظبوا على بناء مقومات الهوية الدينية، فعلى هذا العهد استقر المغرب على العقيدة الأشعرية التي أدخلها الإمام عثمان السلالجي، وهـي وسط بين التأويل والتشبيه. لكن الفقهاء، مع مخالفتهم للنظام الجديـد في بعض الأمور، لم يقدموا على أي شيء يضعف الدولـة، بـل أيـدوها، ولاسيما في جهودها الخارجية ومنازعها الحكمية على عهد الملكـين أبي يعقوب وابنه أبي يوسف، اللذين احتضنا أعلاماً من العلماء من أمثال ابن رشد الحفيد.

وبصفة عامة، فقد تعامل علماء هذا العهد مع الفكـرة التومرتيـة المُشكلة من الظاهرية وغيرها من المصادر، تعاملوا معها بحكمة لم تصرف جهودهم عن تعميق أقدام الدين في المجتمع، فإلى جانب ما اسـتقر مـن معالم المذهب، ومن أساس العقيدة، ومن يقين بالضرورة الشرعية للدولة، فإنهم قاموا في هذا العهد بترسيخ ركن جديد من الثوابت الدينية في عمق المجتمع، وذلك بإقامة صرح التصوف بزعامة علماء من أمثال علـي بـن

حرزهم وأبي مدين شعيب الأنصاري وغيرهما. فقد شهد العهد الموحدي بالرغم من تعاظم رقابة الدولة، استنباطَ ينابيع الحياة الروحية للمغاربـة، وهي ينابيع لم تتوقف فياضةً على الداخل والخارج إلى يومنا هذا.

وإلى جانب كل هذه الخدمة للأمة والدولة والمجتمع، استمر العلماء في بناء نماذجهم الشخصية بقيمهم الذاتية، واشتهر منهم في هذا البـاب أفذاذ من أمثال أبي محمد يسكر الگورائي التادلي، وغيره ممن تميزوا علـى الخصوص بتحري الحلال، وبالدفاع حتى الاستشهاد عن أطراف الـبلاد. والحرص على الحلال في مذهب العلماء، لا يتعلق بالحلـة والحرمـة في المأكول والمشروب والتحصن فحسب، وإنما يتعلق على الخصوص بمصادر الكسب والتمول، أي بتجنب الغصب وتجنب الارتشاء.

ومع حلول العهد المريني، عاد التوافق بين مذهب الدولة واختيارات الفقهاء، فواصلوا بناء رعايتهم للمجتمع في إطار إغناء الفقـه المـالكي، وبذلك استطاعوا رفع ثلاثة تحديات جديدة هي: أولاً التخلص من عقدة استيراد أنماط التعليم، إذ صار العلماء يؤلفون كتباً مناسبة لمدارسهم، بـل كانت لهم مناظرات برز فيها أمثال ابن الأمين وابن الصباغ، أمام أعـلام من المشرق كابن تيمية والعز بن عبد السلام.

أما رفع التحدي الثاني فقد تمثل في إيجاد صيغة متقدمة لمـشروعية الدولة في حضورها الترابي، وذلك في ترابط عضوي مع حضور العلماء، من خلال القول بأن البلاد التي تجري فيها سلطة الحاكم العـادل هـي

وحدها أرض اليقين، أي أرض جريان المعاملة الشرعية الـسليمة، ومـا عداها فأرض سائبة لا يقين فيها،أي لا ضمانة للشرع فيها.

وفي نفس الوقت فإن الدولة قربت أفذاذ العلماء كما في عهدي كل من أبي الحسن وأبي عنان، فقد كان أبو عبد الله الأبلي أستاذُ ابن خلدون الذي قال عنه المقري: إنه عالم الدنيا، كان أبرز رؤوس مجلس الـسلطان أبي الحسن.

أما التحدي الثالث فتمثل في ضرورة تكوين مؤطرين للمجتمـع، ولذلك بنى سلاطين بني مرين مدارسهم الشهيرة، ولاسيما لاسـتقطاب أبناء البوادي، وهكذا برزت، من خلال منابر العلماء التي جمعـت بـين التعليم المتخصص وتثقيف العموم، شخصيات عالمة كالعبدوسي الـذي كانت السلطة تنظم درسه من كثرة الإقبال عليـه، ومثـلَ أبي الفـضل الوليدي والقباب اللذين اشتهرا هما أيضاً بإيلاء أهمية كبرى لمسألة تحري الحلال.

بدأ انحسار سريع لحدود الدولة من جهة الشرق، وتسارع سـقوط مدن الأندلس، وبدأ الاحتلال الإيبيري لمواقع من شاطئ المغرب، وحـل الوطاسيون محل المرينيين في الحكم، فصار التحدي الأول للعلماء هو إنقاذ البلاد من الاحتلال، وكان رأس التعبئة من أجل التحرير، شيخ العلماء في ذلك العهد،أبو عبد الله ابن غازي المكناسي. وبالرغم من ضعف الدولـة الوطاسية فقد ظل العلماء أوفياءَ للبيعة، بل نجد أحد مـشاهيرهم، وهـو اليسيتني، يكتب في هذا العهد كتاباً في حقوق السلطان علـى الرعيـة

وحقوق الرعية على السلطان، ونجد عبد الواحد الونشريسي يتعرض للمحنة بسبب تمسكه بمبدأ البيعة.

وعلى صعيد إصلاح المجتمع، تصدى العلماء للانحرافات التي وقعت في التربية الروحية الشعبية وأجهزتها، وكان أشهر المحتسبين في هذا الباب الشيخ أحمد زروق البرنسي. وازدادت صورة العلماء إشراقاً لما برز عدد منهم في الدفاع ضد العدو المحتل دون التفريط في مهمتهم التعليمية والإرشادية، فهذا عبد الله الورياغلي، وهو المدرس للمذاهب الأربعة، مع تفضيله لمذهب مالك، قد اشتهر بأنه كان يدرس الطلبةَ في فصلي الشتاء والربيع، ويخرج في فصلي الصيف والخريف ليرابط في حراسة ثغور القبائل الهبطية قرب طنجة، حتى لا يتسلل إليها العدو.

تحتم على المغرب في هذا الظرف، القرن العاشر الهجري، الخامس عشر الميلادي، أن يواجه عواقب دخول العالم الأوربي إلى العصر الحديث، ولاسيما ذلك الوجه السلبي المتمثلُ في التوسع الأمبريالي، وكان لابد في المغرب من تغيير سياسي كبير يكون في مستوى الأزمة القائمة، تغييرٍ تحتمي به الأمة، وتتجدد به الدولة، ويستعيد به المجتمع مناعته، لقد تمثل ذلك التغيير في إعادة الشرفاء إلى الحكم على أيدي السعديين ثم على أيدي الشرفاء العلويين.

ولقد كان للعلماء دورهم البارز في صياغة المشروعية السياسية الجديدة على أساس تحرير الأرض ودفع الأطماع الأجنبية، وذلك بالمشاركة الفعلية في هذا التحرير كالتي كانت لعلماء تمنارت في تحرير

موانئ الجنوب، أو كالتي برز فيها علماء أمثال أبي المحاسـن الفاسـي في وقائع المواجهة في الشمال، وكانت وراءَ تعبئة الأمة كتابـات صـنفها العلماء مثلَ كتابِ ***تنبيه الهمم العالية*** لابن يجبش التازي، أو ***لباب مراقي الجنة***، لابن طالعِ الحسني، أو ***مطلبِ الفوز والفلاح***، لعيـسى البطـوئي الريفي.

وكما هو معهود في مثل هذه الظروف السياسية الانتقاليـة، فـإن الأعناق تشرئب، والأطماع تكثر، والترشيحات تتعـدد، للتوصـل إلى السلطة، بنفس شعار الدين، وفي بعض الأحيان يكون ذلك عبر ادعاءات منحرفة من أشهرها ادعاءُ المهدوية.

وقد تجرأ على هذا السلوك المشوش على الدولة الجديـدة المناضـلة عدد من الأدعياء من بينهم سعيد بن المنعم الحاحي، وأحمد بن عبـد الله المعروف بأبي محلي، ومحمد التاهرتي، وقد تصدى للرد عليهم علماءُ مـن أمثال التزركيني والتمنرتي.

وفي حمأة هذه الانشغالات السياسية الكبرى لم يغفل العلماء إصلاح الانحرافات في المجتمع، فقد انتقد ابن عسكر وابن القاضي طائفة العكازين ذات الاعتقادات الزائغة، وشجب الهبطي الفساد الأخلاقي، لاسـيما في حفلات الأعراس والمواسم، ودارت مناقشات عريضة بين العلماء حـول استهلاك التبغ الذي جد في الساحة آنذاك.

بانحسار المغرب وانكفائه على نفسه في حدوده الحالية على وجـه التقريب، بلغت تقاليد انخراط العلماء مداها في عهـد الدولـة العلويـة الشريفة. ويمكن التعرض السريع لهذا الانخراط عبر ثلاثة مراحل: مرحلـة تنتهي بآخر العهد الإسماعيلي، وقد انصبت فيها جهود العلمـاء علـى مؤازرة الدولة الجديدة في تحرير عدد من المدن الشاطئية مـن الاحـتلال الأجنبي، وتمثلت مؤازرة جهود الدولة الإصلاحية في ما أسدته البيوتـات العلمية البارزة مثلَ الزاوية الفاسية التي كانت لعلمائها علاقـة وطيـدة بالسلطان، والزاوية الناصرية التي نشر شيوخها العلم على نطاق واسـع، والزاوية الدلائية التي أسهم علماؤها في نهضة فاس العلمية، بالرغم مـن هدم زاويتهم ونقلهم إلى هذه المدينة.

ويذكر عادةً في معرض علاقة الدولة بالعلماء في هذا العهد أبو علي اليوسي ورسائلُه المتضمنةُ لآرائه في عدد من قضايا الـسياسة الداخليـة، كتجريد قبائلِ الأطلس من السلاح، وكقضية التعامل مع العلماء أنفسهم. ولكن الشواهد المحسوسة على التقدير المتبادل بين الطرفين، تمثلت في مـا توفر للعلماء من وسائل العمل على صعيد المساجد والمدارس والمكتبات. وتطل علينا بهذا الصدد لوحات بهية من كتب التاريخ نرى في إحـداها مجلساً للعلماء داخل غرفة داخلية في قصر المولى إسماعيل، وقد نصب فيها المنبر، وجلس عليه الإمام أبو عبد الله المجاطي لختمة سلْك القرآن الكريم، والسلطانُ المولى إسماعيل يتولى بنفسه خدمة ضيوفه من العلماء ومناولتهم الطعام بيده.

غير أن مرحلة اختمار هذه العلاقة هي عهد السلطانين سيدي محمد بن عبد الله ومولاي سليمان، فقد كانا بشخصيهما معدودين من العلماء، مشاركين لهم في المطارحات العلمية. وقد تميزت هذه المرحلة بنوع مـن التخفيف من التقليد، عن طريق التوسع في مصادر التدريس الذي بـادر سيدي محمد بإصلاحه.

وهنا لا يصح أن يذكر عن أي من السلطانين تراجع، على مستوى الأمة، فيما يتعلق بالعقيدة أو المذهب أو الموقف من التـصوف، ومـن الحجج على الاستمرارية في هذه الثوابت:

1- انتماء العلماء المشرفين على إصلاحات السلطانين مـن أمثال التاودي ابن سودة وابن عثمان المكناسي؛

2- ما ورد من تأكيد الاختيارات السابقة في النصيحة الـتي وجهها سيدي محمد بن عبد الله إلى الأمة؛

3- ما وقع من تجدد في تلك الاختيارات على عهد المـولى سليمان، ولاسيما اغتناء المنحى الصوفي بظهـور الدرقاويـة والتجانية.

لكن إصلاحات السلطانين تفهم في ضوء هموم سياسية هي:

1) محاربة السلوكات الناجمة عن الجهل بالدين؛

2) حماية العامة من التعقيد والغموض في الخطاب الديني؛

3) إبعاد الغلو عن طقوس التواجد الشعبي.

وهي كلها مطالب يلتقي فيها السلاطين والعلماء.

وفي المرحلة الثالثة التي توافق ما بعد عهد المولى سليمان إلى وقـت فرض الحماية، تعرض المغرب لمختلف الضغوط الخارجية.

وقد واجه العلماء الأوضاع الجديدة بالتحفظ تارة وبالتفاعل المبادر تارة أخرى، فكتبوا مطالبين بالإصلاحات في عدد من الميادين على رأسها الجيش، ووضعوا بيانات في التضامن مع الجزائر بعد احتلالها، ودعـوا إلى الجهاد، مع أخذ وضع المغرب وقوته بعين الاعتبار، واستنكروا الامتيازات الأجنبية، وحكموا بالمقت والخيانة على الـذين اسـتجاروا بالحمايـات الدبلوماسية، وطالبوا بحماية الصناعات المحلية، وتفتحوا على أنواع جديدة من المعارف التعليمية. لم يكن هؤلاء العلمـاء في فكـرهم الإصـلاحي متأثرين بالسلفية المشرقية كما يقال عادة، بل كان لعملهم طابع مغـربي أصيل، تجلى ذلك في استمرار البناء على مقومات سابقة وفي كون بعض أعلام الإصلاح هم أنفسهم من شيوخ التصوف.

فرضت على المغرب الحماية الأجنبية وفار مورد عطاء العلماء مـن جديد، حيث تشكلت الحركة الوطنية وكان من أقطابها أربعة من العلماء، بعضهم من أبناء الزوايا، وهم علال الفاسي ومحمد المكي الناصري ومحمد المختار السوسي وعبد الله گنون.

وبعد الاستقلال، كان هؤلاء الأربعة من المؤسسين لرابطة علمـاء المغرب، حرصاً على تجديد مشيختهم الموروثة عـن التـاريخ، وذلـك

بإفراغها في قالب قانوني حديث، وإن كان الإطار مجرد جمعيـة كـسائر الجمعيات. لكن وضع الأمور في نصابها على الوجه المطلوب استلزم مرور أكثر من عقدين من الزمن قبل أن يعاد هذا الإدماج في صيغة جديـدة، ونقصد بها إحداث المجالس العلمية التي تأسست، يا مـولاي، في عهـد والدكم المنعم، وتوسعت خريطتها واختصاصاتها وآليـات تفعيلهـا في عهدكم الميمون.

إن المغرب الذي دخل في عهد حديث تنتظم فيه الحياة العامـة في إطار المؤسسات، كان لا بد أن يصوغ إطار مشيخة علمائه بشكل لائق يعبر عن برور الأمة بعلمائها باعتبار كيانهم في صدارة شروط حماية الملـة والدين التي هي الوظيفة العظمى لإمارة المؤمنين، ويؤهل الرصيد التاريخي المبني، كما رأينا، على الوئام والالتحام، يهيء لتميز المغرب في هذا المجال، بحيث يتأتى للعلماء في الحاضر، وفي آفاق المستقبل، أن يسهموا من جديد في الاضطلاع بحل المشاكل الفكرية والنفسية لأمتهم، مما هو منوط بهـم، متغلبين على كل العوائق التي تواجه أمثالهم في كثير من ديار الإسلام. إنها تحديات تواجه العلماء في وقتنا هذا ونحسبها تتجلى في نوعين من القضايا:

أولاً، قضايا لها علاقة بملاءمة الوعي مع الواقع، وهو ما يسمى عند الفقهاء بمراعاة مقتضى الأحوال؛ ذلك لأن تخلف الوعي عن الواقـع يتجلى في الصعوبة التي يواجهها ضمير الشخص المتدين في التعـرف في وقائع الحاضر على حقائق الدين كما وصلت إليه موصوفة عـبر

آثار ماضٍ تكويني يميل إلى الحرفية في النظر إليه علماً بأن تلك الوقائع قد تعرضت في الحال للتغيير في الشكل أو التوسع في الأبعاد.

ثانياً، قضايا لها علاقة بتصحيح منهج الإرشاد.

وكلا النوعين مما يشغل الضمير الإسلامي في عديد من الأقطـار، وهذه القضايا هي في سياقنا المغربي والحمد لله، إما متجاوزة كليةً بحكـم المعطيات المؤسساتية ونقصد بها دور إمارة المؤمنين، وإما أنها تنتظر تعميق التجاوز بالفعل التربوي الموكول للعلماء.

أما النوع الأول فنشير منه إلى مسائل ست لعلها أهم من غيرها:

أولاً، مسألة انسجام العلماء مع هويتهم وارتياحهم في إطار عملهم، الأمر الذي يقتضي استيعاب التغيرات التي طرأت وتطرأ على العالم، وعدم حصر النظر إليها في الجوانب السياسية، بل إيلاءَ الاهتمام الأكبر للجانب الفكري والاجتماعي القائم على المعارف الجديدة حول الإنسان، فمهمة العلماء التي هي التبليغُ والإرشاد وتصحيح المفاهيم تتوقف اليوم على هذا الاستيعاب. أما من حيث الارتياح في إطار العمل فيتوقف هو أيضاً على استيعاب مقتضى الظرف الجديد حيث ينتصب العالم في مؤسسته باختيار والتزام ووعي منه، انتصاباً تزكيه وتكرسه بالتكليف إمـارة المـؤمنين، باعتبارها وصيةً على جماعة المؤمنين، ومن ثمةَ فهي الحَكَم الوحيد في عدالة من توكل لهم مسؤوليةُ التأطير الديني الذي لا يكفي فيه مجرد الاختصاص الأكاديمي علماً بأن هذا التكريس وهذا التعيين يراعيان الشرط القديم وهو

مكانة العالم في المجتمع. فالعلماء اليوم ينافسهم كثير مـن المـتكلمين في الدين انطلاقاً من مواقع شتى، ومن أفكار إصلاحية أو اقتراحية من مختلف المشارب، ولكنهم يختلفون عن غيرهـم في الالتـزام وفي الاختـصاص المؤسساتي.

ثانياً، مسألة الاستيعاب التام لخصوصيات الدولة الحديثة ونجاعتهـا الشرعية، والواقع أن تخلف الوعي عن الواقع بخصوص هذه المسألة جعل بعض المسلمين، في عديد من الأقطار في عدم ارتياح، بحيث يتشوفون إلى شيء غامض يحقق لهم وهماً فضفاضاً من قبيـل الدولـة ذات الطـابع الإسلامي، بينما هم متوفرون على مقومات يعيشون بها إسلامهم بشروط أمثل، لم يسبق مثلها في التاريخ في جميع عصوره.

ثالثاً، مسألة تطبيق الشريعة. إن الضمانة التي تمثلها إمارة المـؤمنين حتى لا يحلِل حرام ولا يحرم حلال، وحتى لا يصدر عـن الدولـة أي قانون يتناقض مع نص صريح مقطوع به مجمع عليه في الدين، هي الحجةُ على سريان الشريعة في مراعاة المصلحة من منظور مقاصدي، وهنا تدعو الحاجة إلى عمل العلماء من أجل الشرح وفتح البصائر وتنقيـة خطـاب القيمين الدينيين من كل غموض في هذا الموضوع.

رابعاً، مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. إن هـذا المفهـوم مفهوم إصلاحي عظيم، فهو على حسب من رآه فرض عـين يمكـن أن يقارن بما يسمى اليوم بممارسة المواطنة اليقظة، أما من رآه فرض كفايـة،

فقد تقرر عنده أنه لايقوم به إلا علماء مؤهلون بصفاتهم العلمية والخلقية، مأذونون من طرف ولي الأمر. فالذي جد في هذا العصر هو أن الدولـة الحديثة تكرس مئات المؤسسات والآليات والمساطر لكل أنـواع الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويتدخل فيه آلاف المختصين من قبل الدولة وبنفقتها، ناهيك عن الأطراف الحرة الأخرى كـالمثقفين والإعلامـيين وفعاليات اجتماعية متعددة. فهو نشاط قائم على قدم وساق، كمـا لم يسبق أن وقع في التاريخ، وذلك بالنظر لتعقد الحياة الحديثة،غير أن مهمةَ العلماء في كل بناء أو إصلاح، مهمةٌ متميزة لا تعوضها مؤسسة أخرى، لها طابع النصح والإرشاد والتصحيح بالتي هي أحسن، وبالإصلاح بالقول والعمل والقدوة، وهي آفاق يفتحها الظهير الشريف المـنظم للمجـالس العلمية.

خامساً، مسألة الحريات الفردية والعامة، ومن ضمن ذلك حريـةُ التعبير عن كل الآراء. فمنذ الاتصال بالعالم الحـديث وبعـض علمـاء الإسلام يحاولون أمام مد الحرية، إما إعادةَ تقوية رقابة المجتمع على أساس التخويف من ذهاب الدين، وإما التطلع إلى قيام سلطة تكون إلى نظرهم لتقوم بمراقبة ممارسة الحرية، وذهب البعض إلى اعتبار الدولـة الحديثـة مدعوة إلى علاج الانحرافات الشخصية، بوضع قوانين ردعية أو زجريـة حتى على المخالفات الأخلاقية الشخصية، كما لو أن وازع القـرآن، أي تربيةَ العلماء، ميئوس منها في هذا المجال. وبقطع النظر عـن النقاشـات المطروحة، فإن ذوي النظر الثاقب يعرفون أن الدين يستفيد من الحريـة

استفادةً لا تعادلها في التاريخ استفادة، وذلك لأمور من أعظمها أن الحرية التي يكفلها القانون وتزينها الأخلاق، هي شرط الإيمان الـسليم علـى مستوى الأفراد، وهي السبيل الوحيد لقطع دابر الظلم والفـساد علـى مستوى التدبير العمومي. على أن حرج العلماء أمام مظاهر ممارسة الحرية التي لا تزينها الأخلاق ولا يزجرها القانون، إما من باب العفو أو من باب الاقتصاد، لا يمكن أن يخفف منه إلا التصبر على تحمل الأذى.

سادساً، مسألة الإفتاء. إن الأسلوب الذي اتخذته المملكة المغربيـة بجعل الفتوى جماعية تصدر عن مؤسسة العلماء، هو الأسلوب الكفيـل بضمان حرمة الحكم الشرعي الذي له خطورة التأثير في الـرأي العـام، والذي له تبعات كبرى على مستوى المجتمع، وبهذا الأسـلوب يحـصل التمييز المطلوب بين سلطة الإفتاء الذي تعتمده الأمة، وبين مطلـق الآراء الصادرة عن مختصين في الدين أو متجرئين عليه، مهما كانت قدرتهم على إشاعتها بين الناس بمختلف الوسائل.

تلك يا مولاي هي القضايا الست التي تدور حول ملاءمة الوعي مع متطلبات الواقع، دون مخالفة لأحكام الشرع.

أما القضايا التي لها علاقة بتصحيح منهج الإرشـاد فنـشير منـها باقتضاب إلى أربع قضايا:

أولاً، ضرورة مراجعة نفَس الإرشاد والدعوة، وذلك بجعله خالياً من الحماسة والصخب والإثارة، لأن المناسب لطبيعة الإرشاد أن يكون حسناً وسكينةً؛

ثانياً، التوعية بفقه الأولويات، وذلك حتى يميز الناس بين الكليات، أي القضايا الكبرى، وبين الجزئيات التي تأتي بعدها في واجبات الـدين. فالأهم في الشرع أن يبقى الدين، ويبقى الإيمان، وتبقى الأمـة منافـسة بقيمها أمام الأمم الأخرى، والأهم كذلك أن يسود الأمن لتحفظ أرواح الناس وأموالهم، وتصان كرامتهم المعبر عنها بالأعراض. فإذا اهتم الخطاب الديني بشرح الدعوة على أساس هذه الأولويات، فإن فكرة التدين سترقى فوق الخلافات العقيمة، وسيزيد الناس تعرفاً على القيمة الشرعية الكبرى للدولة والأمن والنظام والعدل والتنمية والتآزر.

ثالثاً، الأخذ بقواعد فن التواصل الذي يهدف إلى التقريب، ويشمل كل الفئات، مع مراعاة حاجاتها واللغة المناسبة لها. ومن هـذا القبيـل، يتحتم الأخذ بأمور منها:

أ- الاهتمام بالقضايا الجارية، مع تناولها بالأسلوب الوقور الـذي ورد في السنة المطهرة؛

ب- حرص المرشد أو الخطيبِ على تجنب ما يسمى في لغة العـصر بالشعبوية، أي الخطاب الذي يسعى به صـاحبه إلى اكتـساب النجومية واستمالة النفوس، ولاسـيما إذا توسـل بتـضخيم

مساوىء الوقت، ونعت المجتمع تعميماً بالخروج عـن الجـادة، واتهامِ أولى الأمر بالمسئولية عن تدهور الـسلوكات، والتلـويح بتوقع عقاب السماء.

ج- تجنب تفسير أحوال المسلمين عامة على أنها مجرد نتيجة مـؤامرة نصبتها لهم الأمم الأخرى، في حين أن المطلوب هـو خـروج الناس من خطاب الإرشاد الديني بإحساس يـدفع إلى محاسـبة النفس أولاً، والتأهلِ لعمل ما هو أفضل ثانياً.

د- تبني خطاب التقريب والتيسير، بدل خطاب التخويف والوعيـد والتنفير، لأن التخويف إنما ينفع في نوع من النفوس البـشرية، وهي أقلية، بينما ينفع الترغيب في معظمها. وفي هذا الـسياق، يحذَر المرشد والخطيب من إظهار سلطته الناقمة ضـد أنـواع الفرح والمتعة الفنية المباحة، والابتكارِ الإنساني الخلاق، في حين أن التربية الجدية، وهي الأصعب، هي صناعة النفـوس الخـيرة المنشرحة المتزنة. فقد يخيل لبعض الناس أن التدين مقترن ضرورة بالحزن والانقباض عن الدنيا، وقد يتصورون الفقيـه بتوثيقـه للحقائق مستغنياً بها عن الجمال والرقائق، والواقـع أن مختلـف التعابير الفنية هي أشكال من تحير الإنسان ومن بحثه عن اليقين، فهي تعبيرات لا تخلو من خدمة الدين، لأن يقين التدين لـيس يقيناً سطحياً عند جميع الناس، بل إن عدداً من النفوس تتشوف

إلى التوحيد من خلال بحثها في تجليات المطلق التي يجدها النبيه في كل أعراض الحياة.

مولاي أمير المؤمنين !

إن تجديد الوعي وتجديد أسلوب الإرشاد لهما شرطان نختم بذكرهما:

الشرط الأول فهو ضمان الحياد السياسي للعلماء. فالحقوق السياسية كما هو مقرر في مجتمعات اليوم، مكفولة لجميع المواطنين، والعالم مواطن قبل كل شيء، لكن رسالة العالم الملتزم تفرض عليه عدم إظهار التحيز في خطابه أو نشاطه، لأنه ينتمي إلى مقام الأمة الذي هو مقام الثوابت الجامعة،ولهذا الحياد أصل في كلام الفقهاء عند كلامهم عن ضرورة تجنب ما يجعل إمام المسجد تكرهه طائفة من جماعته، كما لهذا الحياد ما يناظره في الاعتبارات التحفظية الدستورية المطبقة على بعض الفئات في التنظيم الحديث، كالجيش أو القضاء أو أعضاء بعض المؤسسات العليا.

أما الشرط الثاني فيتعلق بضمان تجدد أجيال العلماء بالتكوين في جانبي العلم والأخلاق.

ففي جانب العلم، يتشبث العلماء في المملكة المغربية بالأسلوب الذي تكونوا به وتخرجوا عليه، ولاسيما تقديم حفظ القرآن الكريم واستظهار عدد كبير من المتون والآثار والنصوص الأساسية في مختلف

العلوم، لأن ثقافتهم مبنية على جانبي المنقول أولاً والمعقول ثانيـاً. ومـع ذلك فهم يتوقون إلى تجديد التكوين وتوسيعه إلى علوم أخرى ووسـائل حديثة للتواصل.

أما في جانب الأخلاق، فإن الصفات المطلوبة لا تخفى على العلماء، فقد قرروا هم أنفسهم أن أخلاق العالم المتدخل في المجتمع هي بعد العلم الرصين: الإخلاص والحكمة والاستعانة بالله والورع والرفق وسعة الصدر واللطف والحلم والتواضع والصبر والعفة والشجاعة والاعتـدال وقـصد النصح وستر العورات وقصد الرحمة للخلق والغيرة على المسلمين وتحمل الأذى.

وكان الغزالي قد حذر أيضاً من الاغترار بالعلم ومن الغفلـة عـن الطاعات ومن عدم العناية بالأخلاق الباطنة، ومن عدم التنبه لخدع النفس ومكايد الشيطان، وهي أمور دقيقة غامضة في زوايا قلب الإنسان.

مولاي أمير المؤمنين !

يمكن للباحث، من خلال مئات تراجم علماء المغرب عبر التـاريخ، أن يستنبط الملامح العامة لهذه الطائفة النبيلة، فهم مع إسهامهم الإجمـالي العظيم لم يكونوا سواء، فمنهم من غلب عليه الإرشـاد، ومنـهم مـن استغرقه التدريس، ومنهم من تولى المناصب، ومنهم مـن أشـفق منـها لضعف شخصيته، قياساً بلوازمها، ولكن أكابر العلماء هم الذين حملـوا على عاتقهم في كل وقت وحين واجب المسئولية الكبرى، مسئولية هـم الأمة والحفاظ على استقرارها في إطار ثوابتها، مع تغليب مصالحها العليا،

فكان لهم الحضور القوي في المواقف الصعبة المصيرية، وكانوا السند الأمين لإمارة المؤمنين، فحملوا عامة الناس على الجادة، ولم يزينوا لهـم منـازل الإرجاف والهوى، بينما تحرج بعض أصاغر العلماء مـن التعامـل مـع الأزمات الشديدة، وآثروا الحياد أو الانكماش أو حتى الترقب والتـربص في بعض الأحيان، وفي جميع الحالات، فإن المشهود لهم بالانتماء إلى طائفة العلماء مبرأون من الرياء والنفاق والدسيسة والتقية.

مولاي أمير المؤمنين !

إن مقام العلماء في المملكة المغربية مقام مكين برصـيده التـاريخي وعلاقته العضوية بإمارة المؤمنين، وهو مقام اليقين الذي يتـيح التبـصر الضروري والمناعةَ اللازمة ضد الذهول والحيرة والتذبذب. ومن بينـات ثبات العلماء على مبدئهم في الواقع الحالي أمور منها:

1) انخراطهم في مؤسستهم المتمثلة في المجلس العلمي الأعلى والمجالس العلمية المحلية وقيامهم بواجب تأطير الحياة الدينيـة، ولاسـيما انطلاقاً من المساجد، وعلى أساس ضوابط هذه المؤسسة؛
2) إسهامهم الاجتهادي الرائد في إصلاح مدونة الأسرة والطفل؛
3) تعبيرهم القوي عن رأيهم الشرعي في فتوى المـصلحة المرسـلة واعتبار المرجع النهائي الأعلى فيها هو أمير المؤمنين؛
4) تعبيرهم الواضح الصريح في وثيقة علمية عن دحـض الـشرع لدعاوى الإرهاب؛

5) إقبالُهم على إصلاح التعليم الديني العتيق في إطار القانون الهادف للنهوض بهذا التعليم.

مولاي أمير المؤمنين

في عهد جدكم السلطان مولاي الحسن، قويت الأطماع الأجنبية في المغرب، وكان من جملتها المطالبةُ بتسريح تصدير الحبوب واللحـوم إلى عدد من الدول الأوربية بعد تسريح تصديرها إلى أمريكـا. وقـد أراد السلطان أن يدفع، ما أمكن، هذا المطلب فاستفتى العلماء، فكان جواب بعضهم بعدم جواز هذا التصدير الذي ينطوي على الضرر بالأمة، لكنهم قالوا في آخر الفتوى: إنهم مع الإدلاء بهذا الرأي ليس لهـم بـين يـدي السلطان كلام، إذ رأيهم جاء على الإطلاق الذي لا يخلو فيـه لقيـود المصلحة اعتبار. وقد أجابهم السلطان المولى الحسن بخطاب تضمن الشكر وجاءت فيه كلمات ذهبية تصف الرباطَ الذي بين دولتكم وبين العلماء إذ قال: "لقد أديتم واجب النصيحة التي هي عنـوان صـدق العقيـدة، والنصيحةُ، شرط في البيعة." انتهى كلام المولى الحسن.

مولاي أمير المؤمنين

قال جدكم في هذه الرسالة أيضاً: "وإننا لمزيد عنايتنـا بالرعيـة، وشفقتنا عليها، لنتحمل السهر لتنام أجفانهم، ونرضـى بطـول الكـد لتستريح في الأجل ولدانهم، ولا نألو في إرادة الخير لهم جهـداً، وإقامـة معالم السنة فيهم هدياً ورشداً."

مولاي أمير المؤمنين

إن جدكم المنعم هذا، أراد، بقوله المذكور، أن يشهد العلماء علـى حاله في نضاله، ويشهد اللهُ أن وصف ذلك الحال ينطبـق علـى حـال جلالتكم، لأنكم تحمون التوحيد برعاية القرآن، وبتسهيل ما يتوقف عليه القيام بالأركان، وتتحقق به في العيش لـشعبكم كرامـة الإنـسان، ألا فليشهد في صدارة الشاهدين على ذلك أكابر علماء مملكتكم! وللشهادة في حكم الشرع مقتضياتها.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

ودعاء الختم من أمير المؤمنين.